يقولون نحن المصلحون ولم اجد لهم في مجال القول غير المفاسد
على رسلكم يا قوم كم تسمونا مقالة حقودٍ عليهِ وحاقدِ
ألا فارحموا بالصفح عن ضج صُحْنكم فقد اوردتنا اليوم شرَّ الموارد

نعم القول كنَّا ختمنا بهِ هذه الاسطر الوجيزة الَّا ان المثل بالمثل يُذكَر فننتهز هـذه الفرصة للاحتجاج على مطبوعات بذيئة خلاعيَّة يبثها بعض ذوي الغايات من اعداء الكاثوليك بغضاً وتشفِّياً لا يطلبون بذلك افادة علميَّة او ادبيَّة او اجتماعيَّة الَّا تهييج العواطف واثارة الاهواء الكامنة والغالب انَّ فاعليها من الماسون اعداء الدين والهيئة الاجتماعية. وليست هذه المطبوعات سوى روايات مجونية نقلوها عن منشورات فاسدة اوروبية كاليهودي التائه والمسيح في الواتيكان واسرار رومية فيا لله اهذه كلّ بضاعة اعداء الكنيسة فانهم اذ لم يجدوا ما يقرّفون بهِ بيعة الله المبنية على الصخرة غير المتزعزعة ظنُّوا ان بصاق الملحدين واختراعات مخيلتهم الوسخة تشوّه الصخرة. فهيهات ان تقوى ابواب الجحيم على عمل الرب وغاية ما يفعلون انَّهم يشككون الصغار ويخدعون الاغرار فيحقّ لهم ان يفتخروا باعمالهم فانَّ كلّ اناء ينضح بما فيهِ. فليفرغ كلّ الكفرة ما في جعبتهم من السهام ولينفثوا سمَّهم ما شاءوا فانَّنا تلامذة ذاك الاله الذي علَّمنا ان نغلب الشرّ بالخير وابناء ذلك الاب السماوي الذي يغيظ شمسهُ على الاخيار والاشرار ومن ثمَّ لا تثبط همتنا معاداةُ عدوّ فما دمنا في الحياة نقوم برحاة السيد الذي ارسلنا لنكون ملح العالم والنور المنصوب فوق المرجة. فلله المجد والشكر لاسمهِ القدوس الى مدى الدهور

النصرانية وآدابها
بين
عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

النصرانية في العراق (تابع)

ولعلَّ الديرَين اي دير الجماجم بظاهر الكوفة ودير الحريق قرب الحيرة اللذين ذكرهما ياقوت في معجم البلدان (٢: ٦٥٢, ٦٦٤) قد انشأهما نصارى العرب في

العراق تذكارًا لاولئك الشهداء الذين قتلهم سابور لاجل ايمانهم وفي الروايات التي نقلها ياقوت ما يلتبس بذلك وجاء في روايات أخرى فيه عن ابن الكلبي ان دير الجماجم بناهُ بنو عامر شكرًا لله على ظفرهم ببني ذبيان وبني تميم بعد حرب وقعت بينهم. اما دير الحريق فبُني تذكارًا لقوم أُحرقوا بالحيرة

وما لا يُنكر وتثبتهُ الشواهد التاريخيَّة انَّ الاديرة كثرت في اواخر القرن الرابع للمسيح في جهات العراق التي كان يسكنها العرب. فانَّ القديس اوكين الذي كان نشر العيشة الرهبانيَّة في بلاد الجزيرة وما بين النهرين ارسل عصبةً من تلاميذهِ حتى اقاصي العراق وما عمَّت الآداب الرهبانيَّة ان انتشرت فيها على يدهم اي انتشار خصَّ منهم المؤرخون بالذكر الراهبَ يونان او يونس الذي شيَّد ديرَين الواحد في الانبار قاعدة اللخميين قبل سكناهم في الحيرة على الفرات والآخر بقرب نينوى وقد عرف العرب الديرين كليهما فذكرهما ياقوت ودعا الاوَّل (٢ : ٧٠١) دير مار يونان والثاني دير يونس قال عن هذا الاخير (٢ : ٧١٠) انهُ « في جانب دجلة الشرقي مقابل الموصل وبينهُ وبين دجلة فرسخان واقلّ وموضعهُ يُعرف بنينوى »

وفي التواريخ الكلدانيَّة القديمة ان يونان المذكور طاف بلاد السواد وبشَّر العرب بالمسيح وكان قبل ان يزهد بالدنيا يتعاطى العلوم الفلسفيَّة ويزاول الطبّ فحبَّبهُ ذلك الى العرب وكافَّة اهل السواد. ولمَّا ابتنى ديرهُ في الانبار كثر عدد الطالبين للترهُّب تحت تدبيرهِ

وفي النصف الثاني من هذا القرن الرابع تولَّى احد رهبان النصارى اسمهُ عبدا بناء الاديرة في انحاء العرب فقدم على جاثليق المدائن المسمى تمُوز او تومرصا ونال منهُ الرخصة في ذلك فبنى هو ديرًا كبيرًا في دير قنَّى او درقان وطنهِ على اسم مار ماري حيث كانت ذخائر ذاك الرسول. وبنى تلامذتهُ اديرةً اخرى منهم تلميذهُ عبد يشوع الذي شيَّد على نهر صرصر الدير المعروف بالصليب حيث كان ظهر صليب منير في أيام استشهاد المسيحيين على يد سابور باغراء المجوس. وشيد ديرًا آخر في باكسايا في سواد العراق ثم ديرًا ثالثًا عند الفرات. واخبر المؤرخ ابن ماري (ص ٢٩) انهُ تلمذ العرب في متوث وميشان واليمامة وردَّ بني ثعلبة الى الايمان (١ فجعلهُ تومرصا اسقفًا

(١) اطلب المكتبة الشرقية للسمعاني (ج ٣ ص ١٩٨ و ٢١٨ و ٣٠٢)

مقامهُ في دير محراق . ومنهم تلميذهُ بيالاها الذي ردَّ اقواماً من العرب في ارياف الفرات وابتنى ديرًا في دسكرة السواد وديرًا آخر على ضفَّة النهر قيل انَّ عدد رهبان ديره قد كثر حتى ضاق بهم الدير مع سعتهِ فبلغوا الاربعمائة بنيِّف وكان الرهبان من الحاء شتى يتكلمون لغات مختلفة فجعلهم اربعاً وعشرين فرقة يتعاقبون في تلاوة الفرض الالهيّ ليلًا ونهارًا فيتلون الصلوات والتسابيح في لغاتهم اي السريانيَّة واليونانيَّة واللاتينيَّة والقبطيَّة . وكان سبقهُ الى ذلك في هذه المناسك راهب آخر اسمهُ اسكندر الذي انشأ طائفة السامرين (Acémètes) لمواصلتهم الصلاة ليلًا مع نهار . وقد ذكر سليمان بن ماري في تاريخ فطاركة كرسيّ المشرق (ص ٢١) وعمرو بن متى في المجدل (ص ٢٨) كثيرًا من هذه الاديرة واختصرا تواريخها عن كتبة معاصرين اخصهم أحي تلميذ مار عبدا الذي وضع ترجمة حياة معلمهِ ثمَّ صار بعد ذلك بطريركًا على الكلدان

فهذا العدد الوافر من الاديار وكثرة المترهبين فيها دليل واضح على سطوع ضياء النصرانيَّة بين عرب العراق في ختام القرن الرابع للمسيح . فانَّ كلَّ دير منها كان كينبوع من المياه الحيَّة يسقي تلك الارجاء فينبت للخلاص الثمار الطيبة . وكان المتنسِّكون يمارسون من الفضائل اسماها ومن الاعمال المبرورة افضلها وأولاها حتى انهم ما كانوا يحجمون عن الموت والعذابات لاجل دينهم كما يُروى عن الشهداء الثلاثة الذين اوفدهم ملك العجم الى القيصر يليانوس المارق سنة ٣٦١ واسماؤهم ماتويل (او عماتويل) وشابيل واسماعيل اراد يليانوس ان يغصبهم على السجود للاصنام فأبوا وماتوا في سبيل دينهم القويم في القسطنطينيَّة واعمالهم مدوَّنة في مجموع البولنديين (Acta Sanctorum, d. XVII Junii) . وكان قبلهم سفيران آخران (سنة ٢٥٠) قد وفدا على دقيوس من قبل دولة الفرس اسمها عبدون وسنان وفضَّلا الموت على جحود النصرانية فقُتلا في رومية وعيدهما في الكنيسة في ٣٠ تموز

وبعد هؤلاء نشأ العراق بزمن قليل قام في الكنيسة الانطاكية قديس آخر اشتهر في الشرق والغرب معاً نزيد بهِ القديس سمعان العمودي المولود نحو سنة ٣٦٠ للمسيح الذي رقي عمودهُ في الجبل المعروف باسمهِ في جهات انطاكية واضحى بعد مدَّة كمنارة استضاء بها العالم كلهُ . وسيرتهُ قد كتبها احد تلاميذهِ المسمى انطون

نُشرت في اعمال الآباء اللاتينيين (Migne, P. L. t. 73, p. 329) وكتبها ايضاً تاودوريطس معاصرهُ الذي كان يتردَّد عليهِ وهو من اوثق المؤرخين واصدقهم روايةً . وكذلك روى اعمالهُ كثيرون من السريان فنُشرت تآليفهم في هذه المدَّات الاخيرة . ومن يتصفَّحها يتحقَّق ما نالهُ العرب من فضل القديس سمعان . وقد مرَّ لنا ذكر الحميريين الذين كانوا يقصدونهُ من اليمن . وكان العراقيُّون من العرب يتبايونهُ بشوق اعظم لقربهم منهُ . اسمع ما كتبهُ تاودوريطس اسقف قورش بعد ان شاهد عياناً العجائب التي كان يأتيها العمودي قال عن العرب ما نوي قسماً منهُ معرَّباً (١ :

« انَّ مقام سمعان على عمودهِ قد انار قلوب الأُلوف المؤلَّفة من بني اسماعيل فكانوا يأتونهُ افواجاً افواجاً فيتقاطرون اليهِ تارةً ماشين وتارةً ثلاثمائة واحياناً ألوفاً (ἔστε καὶ χίλιοι) فيجحدون لديهِ اضاليل اجدادهم وربَّما حطَّموا امامهُ اصنامهم ولثموا باغرائهِ الزُّمَرة وعبادتها النجسة ثم كانوا يتلقَّنون التعاليم الخلاصية ويذعنون للبشارة الانجيليَّة . وقد حصل لي خطر على حياتي من تراحمهم عليَّ لانَّ القديس سمعان كان يأمرهم ان يطلبوا مني البركة الاسقفيَّة مؤكِّداً لهم انَّها تعود عليهم بالخير فكانوا اذ ذاك يتحمون عليَّ من كل جانب من الامام والوراء والجانبين ويركب بعضهم على اكتاف البعض ويمدُّون اليَّ ايديهم ليلثموا مني البركة ولولا ان القديس سمعان كان يزجرهم لكُنت تأذَّيتُ من لجاجهم وازدحامهم عليَّ »

وقد ذكر هناك تاودوريطس ومثلهُ المؤرخ ايفاغريوس والكاهن قزما معاصرهُ عدَّة عجائب وآيات باهرة صنعها سمعان مع العرب وشيوخهم زادت ثقتهم بهِ وتواردُهم اليهِ واقبالهم على استماع اقوالهِ . فمن ذلك ما اخبر بهِ عن امير قبيلة نُقل اليهِ مخلَّعاً على سرير من مدينة الرَّقَّة فشفاه القديس برسم اشارة الصليب عليهِ وصبغهِ بمياه المعموديَّة فعاد كيخلع الانجيل حاملاً سريرهُ والحضور كلهم يشكرون الله على هذه النعمة السابغة (٢ . وكذلك اخبر عن امير آخر كان تنصَّر ونذر بين يدي القديس انَّهُ يصوم عن اكل اللحم فنسي نذرهُ مرَّة واكل قطعة من اللحم استحالت في جوفه الى حجر كاد يلفظ به روحهُ لو لم يسرع الى القديس الذي خلَّصهُ بصلاتهِ (٣ . وارسلت ملكة العرب من العراق وسألتهُ ان يزيل عقمها وينال لها من الله ابناً ذكراً فنالتهُ وارسلتهُ الى زجل الله لينال بركتهُ

---

١) اطلب الباب ٢٦ من كتاب المدعو بقيلوتاوس او الحياة الرهبانيَّة (Migne P. G., t. 82, col. 1474)

٢) الآباء اليونان (P. G., t. 88, col. 1477) ٣) فيهِ ايضاً

وذكر تلميذهُ انطون في سيرته (١ انَّ اميرًا من امراء قبائل عرب الجزيرة دعاهُ مالكًا (Basilicus) قدم على القديس فوجد سمعان يصلي فوق عمودهِ فبقيَ تحتهُ ينتظر نهاية صلاتهِ ليطلب بركتهُ واذا بدودةٍ كانت ترعى جسم القديس وكان يحتمل ذلك بصبر جميل بالله سقطت فالتقطها الامير ليحفظها كتذكار وذخيرة. فلحظ سمعان فعل الامير فصرخ اليهِ: انك بفعلك هذا أيُّها الرجل الشريف قد كدَّرتني فكيف تمسّ ما ينتثر من جسدي من القذر. ففتح الامير يدهُ واذا بالدودة قد استحالت الى درَّة ثمينة فاراها القديس وقال: ليثبت هذه دودة بل درَّة. فاجابهُ سمعان: على حسب ايمانك قد صنع بك الربّ فلتكن يدك مباركة طول حياتك. وانطلق الامير فرحاً

على انَّ بعض امراء العرب غير المتنصرين لم يرضوا بفعل رعاياهم ومرورهم الى بلاد الرومان وتنصُّرهم على يد سمعان العمودي. وممَّا اخبر المؤرخ قزما الكاهن انَّ ملك الحيرة الذي دعاهُ بالنعمان وهو النعمان الاوَّل الذي يلقبهُ العرب بالاعور لمَّا استولى على ملك الحيرة بعد امرئ القيس الثاني (نحو سنة ٣٦٠ الى ٤٢٠) امتعض من رحلة اهل الحيرة الى القديس سمعان فاعلن بامر ملكي انَّهُ ينهى تحت عقاب الموت الخروج الى زيارة السائح. فما انتشر هذا الخبر حتى استولى الخوف على رعاياه فرأوا ان الطاعة لهذا الحكم الظالم اولى من التعرُّض للموت الاحمر. الَّا انَّ الملك لم يلبث ان ندم على ما فعل. ففي ذات الليلة التي وليتْ صدور الحكم ظهر لهُ القديس في الحلم وفي يدهِ سيف ومعهُ خمسة رجال لابسين ثياباً بيضاً ناصعة فنظر الى الملك شذرًا وبكَّتهُ على فعلهِ ثمَّ امر الرجال ان يربطوهُ ويجلدوهُ جلدًا مبرِّحاً دون ان يرثوا لعويلهِ فلمَّا كاد يصير الى التلف امر بالكفّ عنهُ ثمَّ سلَّ السيف متهدِّدًا وقال: « اياك اياك ان تعود الى مثلها فبهذا السيف تقطع مفاصلك » فقام الملك وهوَ على آخر رمق ولمَّا اصبح الصباح جمع حاشيتهُ والقى حكمهُ امامهم وحضَّ شعبهُ ان يذهبوا الى القديس كيفما شاؤوا. قال قزما المؤرخ: « وهذا الخبر رواهُ احد قوَّاد النعمان المسمَّى انطيوخس بن سالم وكان سمعهُ من فم النعمان ولمَّا جاء ليزور القديس اخبر بما سمع امام سمعان نفسهِ وانا حاضر ». وأردف الراوي قائلًا: ومذ ذاك الحين

(١ اطلب مجموع الآباء اللاتين (Migne: P. L. t. 73, p. 329)

أطلقت الحريَّة لعرب الحيرة بان يدينوا بالنصرانيَّة ثم قال: والملك النعمان كان يريد بعد ذلك ان يتنصَّر ويزهد بالدنيا لكنهُ خاف من سطوة ملك العجم

(قلنا) ولنا في شهادة مؤرخي العرب ما يثبت هذه الرواية ويؤيد صحَّتها. فانَّ المؤرخين قد رووا انَّ النعمان الاعور بعد سنين من ملكهِ اجتمع باحد النسَّاك الصالحين المدعوّين بالرابطة فزهَّدهُ بالفانية ودعاهُ الى ترك الدنيا وعبادة الله فلبى الملك دعوتهُ ولبس معهُ المسوح وساحا في الارض زهدًا (١) . وليس هؤلاء الرابطة على رأينا سوى رهبان النصارى الذين بنيًا لك وفرة عددهم في جهات العراق وزهدهم بالعالم. وفيما ذكرنا من تاريخ قزما مصداق على هذا الرأي. ولعلَّ الدير الذي دعاهُ العرب بدير الاعور قد ابتناهُ نعمان الاعور المذكور لولا انَّ ياقوت (٢: ٦٤٤) نسب دير الاعور الواقع على قوله بظاهر الكوفة الى رجل من بني حذافة ابن زهر بن اياد وقد مرَّ بك انَّ بني اياد من اقدم قبائل العرب المتنصِّرة .

ولا غرو ان تنصُّر هذين الملكين زاد النصرانيَّة شأنًا وعزًّا في العراق. قال قزما بعد روايتهِ عن انطيوخس بن سالم في ندامة النعمان ان الدين المسيحي مذ ذاك الوقت نما نموًّا عظيمًا فكثر عدد الاساقفة والكهنة حتى ضاق عن الحصر. ولمَّا قام الملك ازدشير الاوَّل واضطهد النصارى في ملكهِ نال عربَ العراق قسمٌ من تلك المحن اظهروا فيهِ من الثبات ما غيَّر بعد مدَّة افكار الملك فتغاضى عنهم. وقيل انَّ امرأة الملك ازدشير نالت بشفاعة القديس سمعان الشفاء من مرض عُضال فرغبت الى الملك ان يكفَّ الاضطهاد عن النصارى في مملكتهِ

وفي القسم الاوَّل من القرن الخامس بلغت النصرانيَّة اوج فخرها وازدهارها في العراق. وكان الايمان كاثوليكًا محضًا لم يُشَبْ بشيءٍ من اضاليل النساطرة واليعاقبة وكان الاساقفة حريصين على وديعة التعاليم الرسوليَّة كما ترى من اعمال مجمع المدائن الذي عُقد سنة ٤١٠ فشذبت اضاليل آريوس وغيره من المبتدعين

وفي هذا الزمان عُرف القديس ماروثا رئيس اساقفة ميَّافارقين الذي حظي لدى ملك العجم ازدشير الثاني وابرأ ابنتهُ من داء عقام فنالت من ابيها الحريَّة التامَّة لنشر النصرانيَّة في العجم. وماروثا من كبار القديسين الشرقيين والمدافعين عن الايمان

(١) اطلب تاريخ الطبري طبعة ليدن (ج ١ ص ٨٥٤) ومجموعنا مجاني الادب (٢: ٢٢١)

المستقيم بهمته عُقد مجمع ثان في المدائن سنة ٤٢٠ لاثبات عقائد الايمان وحُرم نسطور

وفيه ايضاً اصبحت جهات الجزيرة ولا سيَّما العراق العربي كصعيد آخر بلغ فيها عدد الزهَّاد الى ما تجاوز كلّ احصاء. فكانت الاديرة كمدن واسعة يسكنها الوف من الرهبان يقضون فيها الحياة في الصلاة والشغل. ولو راجعت الفصل الذي خصَّهُ البكري في معجم ما استعجم (٣٥٨ — ٣٨١) وياقوت الحموي (٢ : ٦١٠ — ٧٣٩) وغيرهما بهذه الاديرة لرأيت ان بلاد العراق كان لها نصيب كبير منها وهو لم يذكر غالباً الَّا ما ورد اسمهُ في شعر الشعراء كدير الابلق في الاهواز ودير ابي يوسف فوق الموصل قريب من بَلَد وديارات الاساقف بالنَّجَف بين قصري ابي خصيب والسدير وديري الاسكون بالحيرة وقرب واسط كانت فيها مدارس للعلوم الدينيَّة ودير اشموني قرب بغداد ودير الاعلى بالموصل على جبل مطلّ على دجلة ودير باشهرا بين سامرَّا وبغداد ودير باعَربا بين الموصل والحديثة على شاطئ دجلة ودير ميخائيل ودير الثعالب منسوب على ما نظنّ الى بني ثعلبة المتنصرين قريب من بغداد عند الحارثيَّة ودير الجرَعَة بالحيرة ودير الحوات بعُكبرا ودير الخنافس على قلَّة جبل تُشرف على دجلة ونينوى ودير دُرْتا غربيّ بغداد ودير الدهدار بنواحي البصرة ودير الزَّندَورد في الجانب الشرقي من بغداد ودير سابور غربيّ دجلة ودير سمالو وكلاهما قرب بغداد ودير السُّوسي بنواحي سرّ من رأى (وهي سامرَّا) ودير الشاه بارض الكوفة ودير ضباعي شرقيّ تكريت ودير الطواويس بسامرَّا ودير العاقول بين مدائن كسرى والنعمانيَّة ودير العجَّاج بين تكريت وهيت ودير العَلث ودير فشيون وكلاهما بسامرَّا وديري القباب وقوطا من نواحي بغداد ودير القيَّارة عند الموصل ودير كَرْدشير بين الريّ وقم ودير كُوم من اعمال الموصل ودير مسار فشيون بالحيرة اسفل النجف ودير مسار سرجيس قرب سامرَّا ودير متى قرب نينوى ودير مديان على نهر كرخايا قرب بغداد ودير مر جرجس بالمزرفة قرية من متنزهات بغداد ودير مَرْمادي من نواحي سامرَّا ودير مر يُحنَّا جانب تكريت ودير ملكيسا وا فوق الموصل ودير هزقل في جهات البصرة وغيرها ايضاً تؤيد كثرتها ما قلنا عن انتشار النصرانيَّة في العراق

والعرب لم يعرفوا فقط هذه الاديرة ورووا اسماءها في اشعارهم او ذكروها في جملة اخبارهم بل نُسب كثير منها اليهم او لوقوعها في ديارهم او لانَّهم عُنوا

أهو مادّة وهيولي او هو غير ذلك فهنا الشكل الذي تختلف فيه آراء الفلاسفة. فيقول الماديّون ذلك جسمٌ ومادّة انما هو من بعض تكييفات الدماغ وتمزج ذرّاته وحركة دقائقه. اما الروحيّون فانهم يزيّفون قولهم وينكرون قطعياً كون الفكر جسماً ومادّة لان الجسم ما لاح لحواسنا وما ادركتهُ الحواسّ كموضوعها الخاصّ ويعلّمون على خلاف ذلك انّ الفكر خارج عن المادّة وانّ النفس التي تعلّله هي جوهرٌ روحانيّ يمكنها ان تحيا بمعزل عن الجسد والمادّة

فيترتّب اذن على الفيلسوف الروحاني ان يثبت انّ الجسد او الدماغ لا يكفي لتعليل الفكر والادراك وان الفكر والادراك لا بُدَّ لهما من مبدإ اسمى واشرف يكون بسيطاً خالياً من الاجزاء والمساحات لا يتعلّق بالمادّة في ذاته الجوهريّة ولا يحتاج الى مادة في كيانه الخاصّ. اي يجب عليه أنْ يبين انّ ما يدعوهُ الناس بنفس ليس هو بجسم ولا بجزء من جسم ولا عرض ولا يحتاج في وجوده الى قوّة جسميّة بل هو جوهر بسيط غير محسوس بشيءٍ من الحواس يقوم بذاته ويتمم بعض اعماله بمعزل عن الجسم. فنقول:

انّ الدليل الاوّل على قولنا انّما هو ما العنا اليه في المقدّمات وينبغي ان نوضحهُ هنا بكل جلاء. اعني انّ في الانسان مبدأً مفكّراً مدركاً للمعقولات والكليّات وهذا المبدأ هو النفس فالنفس اذن روحانيّة

ان دخلتَ الى بعض المخازن في بيروت وقعت عينك في هذا الطرف على اجناس من الطنافس المختلفة الصور والاشكال والالوان والاقيسة. وفي ذاك على ضروب من الاقمشة التي لا يفي بعدّها احصاء. وفي جانب ثالث ترى الاسرجة والقناديل المتباينة الاصناف ذات الهيئات العديدة وعلم جرّا. فهذه الطنافس وهذه الاقمشة وهذه السُّرُج يختلف كلٌّ منها بالمكان والوضع والصورة والهيئة فيمكن تمييز كلٍّ منها عن الآخر بعلامةٍ ما يُستدَلُّ بها عليه. الّا انّ في كل صنفٍ ايضاً شيئاً عمومياً يشمله ويتبادر العقل اليه وذلك جوهرهُ الخاصّ اعني جوهر الطنافس وما به تمتاز الطنافس عن الاقمشة وما يفرزها عن القناديل وجوهر السُّرُج وما يجعلها سرجاً ليست احذية. فهذا الجوهر الذي هو واحد في كلّ افراد النوع هو الذي عقّلهُ فكري دون بقية مميزاته المحسوسة ويطلق عليه اسم الجنس فيقول « الطنفسة » ليس « هذه الطنفسة »

بذلك الى تُقاهم وتحسُّسهم في الدين. وكانوا يتفاخرون ببناء البيع في احيائهم. قال الفيروزابادي: وكان في الحيرة كثير من الكنائس البهيّة. وقال الزبرقان بن بدر التميمي لمّا وفد على محمّد يذكر كنائس قومه: (سيرة الرسول لابن هشام ٩٣٥)

نحنُ الكرامُ ولا حيٌّ يعادلنا منّا الملوكُ وفينا تُنصَب البيعُ

وقال في معجم البلدان (٢: ٧٠٣): «كان اهل ثلاث بيوتات يتبارون في البيع وربّما (كذا) اهل المنذر بالحيرة وغسّان بالشام وبنو الحارث بن كعب بنجران وبنوا ديراتهم في المواضع النزهة الكثيرة الشجر والرياض والقُدْران ويجعلون في حيطانها الفسانس وفي سقوفها الذهب والصور وكان بنو الحارث بن كعب على ذلك الى ان جاء الاسلام». وقال ابن دُرَيد في كتاب الاشتقاق (ed. Wüstenfeld. 226) عن بني عديّ: «ومن بني لخم بنو عديّ بن النُّميل بن اسس لهم بيعة بالحيرة وكانوا اشرافاً»

وكان يحقّ بنا ان نضيف الى هذه الشواهد جدول الاساقفة الذين كانوا في القرن الخامس يدبرون كنائس العراق العربي كالانبار والحيرة والبصرة وبيت عربايا وميشان وغيرها لكنّ ذلك يطول بنا فنشير اليه فقط لشارة خفيفة

لكنّ الحقيقة تضطرّنا ايضاً ان نذكر ما أُصيبت به كنائس بابل والعراق. فانّ في اواخر القرن الخامس نفثت البدعة النسطوريّة فيها سمّها وخدعت كثيرين من المؤمنين والاساقفة فاعاروا لها اذناً صاغية وانتسوا الى اصحابها. ثم قامت باثرهم البدعة اليعقوبيّة وانتشرت انتشاراً عظيماً في بلاد الجزيرة وبلغت ايضاً الى انحاء العراق فقامت الحرب الدينيّة بين البدعتين على ساق وكانتا في البيعة الشرقيّة كالزوان الذي خنق الزرع الجيد الذي زرعهُ ربُّ البيت. فلا غروَ انّ العرب انقسموا مع اهل تلك البلاد الى قسمين فعدّل قسم منهم ولا سيّما اهل القبائل الواقعة شرقيّ الموصل حتى خليج العجم الى النسطوريّة بينما كان القسم الآخر ومقامهم على الاخصّ في غربي الموصل وفي ديار ربيعة الى جهات الرها وتخوم حلب وحمص وحماة قد تبع اليعقوبيّة

فابتداء تقهقر النصرانيّة مذ ذاك الحين في الشرق فترى تاريخ الكنيسة الشرقيّة ينحصر غالباً في تاريخ الخصومات والمشاغبات التي سبّبتها تلك البدعتان او ما كان ينوط بهما من البدع والمشاكل. وزاد في الطين بلّة تداخل ملوك القسطنطينيّة من

الروم في امور الدين فاقاموا نفوسهم كقضاة في المعتقدات المسيحيّة وكان منهم من يعضد البدع وينتمي اليها جهاراً كما فعل قنسطنسيوس ووالنس اللذان نصرا الاريوسيّة وكزيثون وانستاس المدافعين عن اليعقوبيّة وكهرقل الذي دافع عن بدعة المنوثليين فكنت ترى المجامع تتوالى منها كاثوليكيّة ومنها هرطوقية فتبطل هذه ما اثبتهُ تلك وكان الاحبار الرومانيُّون مهتمين وقتئذٍ بتهذيب لمم البرابرة التي هجمت على المملكة الرومانيّة فلا يستطيعون ان يداووا اسقام الشرق كما يشاؤون ليُعد الشرق عن نظرهم او ايضاً لما كانوا يجدونهُ في ملوك الروم وبطاركة القسطنطينيّة من المخالفة لاوامرهم فاصبح الشرق في هرج ومرج واختلّت بذلك امور الدين وانتقض حبل الايمان المتين

وان تتبعنا تاريخ النصرانيّة بين عرب العراق في اواخر القرن الخامس ومدّة القرن السادس وجدنا بينهم رَجع صدىً لهذه الحوادث الجارية في ظهرانيهم وهم مشرطون في العراق بالكنيسة الكلدانيّة التي تبعت اضاليل نسطور وفي الجزيرة وديار بكر وربيعة وانحاء الرها بالكنيسة السريانيّة التي غلبت عليها الهرطقة اليعقوبيّة

وكان ملوك الحيرة اوّل من تأثر بهذه الحوادث فان السياسة قضت عليهم بان يتبعوا الدولة الساسانيّة التي بسطت حمايتها على النسطوريّة وعضدتها في بلاد العراق الى نصيبين وذلك بغضاً بملوك الروم الذين كانوا يتقلّبون حيناً مع البدعة اليعقوبيّة وحيناً مع الكنيسة الكاثوليكيّة. ونرى المؤرخين الروم واللاتين مضطربين في ايضاح تاريخ ملوك الحيرة فتتناقض آراؤهم فيهم اذ كانوا يرونهم في مصاف اعدائهم الفرس فبعضهم يجعلونهم وثنيين وبعضهم يذكرونهم في عداد النصارى ويروي غيرهم عن امراء الجيش ما لا يصحّ الّا عن الملوك وبعكس ذلك ينسبون الى الملوك ما اتاهُ الامراء. ونرى شيئاً من هذا الاضطراب في رواية السريان والعرب. وها نحن نورد من ذلك ما نراهُ اقرب الى الحقّ

خلف المنذر الاوّل في ملك الحيرة اباهُ النعمان بعد تنصُّره وزهده فملك ٤٤ سنة (٤١٨ — ٤٦٢) قضاها في حروب متواترة ضدّ الروم في خدمة ملوك الفرس لا سيّما بهرام جور بن ازدشير الذي كان تربّى بين عرب الحيرة. وكان بهرام عدوًّا للنصارى فامتحنهم في بلاد فارس وجوارها وصادرهم وقتل منهم كثيرين تعيد الكنيسة

ذكرًا لاستشهادهم وكأنَّ المنذر وافقهُ على آرائه وعاد الى شرك آبائه القديم . واخبر سقراط (١ المؤرخ معاصرهُ أنهُ دخل في بلاد الروم فنهب وسلب واحرق وسبى وكان يقصد السَّير الى القسطنطينيَّة ليفتحها لكنَّهُ لم يفلح وأصيب جيشهُ بكسرة عظيمة وقُتل منهم مئة الف على قول سقراط وسبعون الفًا على رأي الكتبة السريان

وقام بالملك بعد المنذر ابناؤهُ الثلاثة بالتوالي اعني نعمان الثاني (٤٦٢—٤٧١) المعروف بابن شقيقة صاحب الفرقتين الشهباء ودوسر . ثم الاسود (٤٧١—٤٩١) ثم المنذر الثاني (٤٩١—٥١٨) ولا نعلم من امر دينهم شيئًا بل اخبارهم مضطربة لا تُؤخذ سندًا لتاريخ

واثبتُ منها اخبار النعمان الثالث ابن الاسود بن المنذر (٤٩٨—٥٠٣) الذي سها عن ذكرهِ معظم مؤرخي العرب الَّا حمزة الاصفهاني (ص ١٠٤) وقال انَّ امَّهُ كانت تدعى ام المالك وانَّها كانت ابنة عمرو المقصور احد ملوك كندة وجدّ امرئ القيس الشاعر غزا ايضًا الروم ونهب بلادهم وكان في خدمة الملك قباذ . ولعلهُ هو هو الذي اشار اليهِ مؤرخو الروم (٢ لمَّا ذكروا فتح الفرس لمدينة آمد فقالوا انَّ ملك العرب طلب من قُباذ ان لا يُصابون باذًى الذين التجأوا الى كنيسة الاربعين شاهدًا وفي هذا دليل الى ميلهِ الى النصرانية لكنهُ بعد ذلك صارت عليهِ الدولة فكسرهُ الرومان ذفعتين . واخبر يوشع العمودي المؤرخ السرياني (٣ انَّ النعمان مشى اخيرًا الى محاربة الرها معَ قباذ ولمَّا نهاهما عن ذلك احد ضباط جيشهِ النصارى وذكر لهُ قصَّة الابجر ملك الرها والسيد المسيح غضب عليهِ وسَّم دينهِ وكان ذلك داعيًا الى موتهِ اذ انتقض جرحهُ السابق فمات . فعين قُباذ كخلفهِ في تدبير الملك رجلًا يدعوهُ ابو الفداء وحمزة الاصفهاني وغيرهما ابا يعفر علقمة وهذا لم يكن من ابناء الملوك ولعلهُ كان فقط وليًّا للملك وانَّما كان من اشراف اللخميين واحد ابناء أُسرة بني ذميل النصرانيَّة التي سبق ذكرها فاستخلفهُ قباذ ولم يتولَّ سياسة الدولة الَّا ثلث سنوات ، ثمَّ أقيم امرؤ القيس الثالث الذي لم تطل مدَّتهُ (٥٠٥—٥١٢) (لهُ تابع)

---

١) اطلب تاريخهُ ك ٧ ف ١٨

٢) اطلب تاريخ زوزباخر (٨١:٥٥٧)

٣) اطلب تاريخهُ (Josué le Stylite, *éd. Martin.* p. 42)